قبرٌ بلا تفاصيل

• إرادة الجبوري*

التقينا في مطعم يَقْبع في آخر طابقٍ من بناية عالية جداً. كانت صنعاء في متناول النظر من جوانب المطعم الزجاجيّة الثلاثة. اختار طاولةً في زاوية من المكان.

علّقتُ قبل أن أستقرّ في كرسيّ: «جميل.. من هنا نستطيع رؤيةَ المقبرة.»

لم يكن تعليقي اعتراضًا، ومع هذا كان حازمًا وهو يَطْلب منّي تغييرَ الطاولة. انصعْتُ إلى طلبه ضاحكةً: «ولكنْ ما الذي حَدَث؟ المكان لا بأس به.»

تمتم: «لم يكن اختيارًا موفّقًا.»

ـ لماذا؟

ـ اللقاء الأول قبالةَ مقبرة!

ـ هل تخاف الموت؟

ـ لا. لكنّ الفكرة مزعجة.

ـ فكرة الموت؟

ـ لا. أقصد فكرةَ أن نلتقي أوّلَ مرّة وأمامنا...

ـ مقبرة!

ـ ليس هذا فحسب. أَقْصد، دعينا من المقابر والموت. لنبدأ الحديثَ بموضوع آخر.

ـ لكَ هذا. غير أنّ الموت ليس مخيفًا إلى هذه الدرجة.

كانت تلك أوّلَ مرّة نلتقي فيها من دون آخرين. ورغم محاولاتنا التكلُّمَ عن أشياء أخرى، كنّا نجد أنفسَنا نعود إلى الحديث عن المقابر: عن الذين رَحَلوا، وعن طقوس الموت في العراق القديم وعلاقتِها بمراسيم الحزن في حياتنا. حدّثتُه عن ذكرى قديمة، عن الموت الذي يَسْكن في داخلنا، عن الفرح المؤجّل، عن ضرورة التطامن مع الموت وعدمِ الخوف منه.

كان يصغي إليّ بصمت. وكنتُ أتحدّث هاربةً من نظراته إلى بيوت صنعاء القديمة، إلى الشوارع المكتظّة بالمارة، إلى الشمس في لحظةِ تردّدها في اتّخاذ قرارٍ (شعرتُ بقسوته) وهي تحاول الانسحابَ بهدوء وبلا تعجّل من سطوح المدينة وشوارعها وضجيجها إلى ما وراء الجبل.

انتابني حزن مفاجئ وأنا أتذكّر دقائقَ عِشْتُها في الشتاء الماضي... دقائقَ لا يُمْكن وصفُها، غير أنّي شعرتُ بها بعمقٍ وهي تعاودني من جديد وأنا في مطعم أنيق يُطلّ على صنعاء المحاطةِ بسلسلة من الجبال.

كان ذلك في صبيحةِ أحد الأيام في قاعة الدرس. كنتُ أحدّث الطلبةَ حول علاقة الإعلان برغبات الإنسان، وفجأةً عَبَرتْ أنظاري النافذةَ واستقرَّتْ على مشهد الجبال المحيطة بصنعاء.

لا أدري كم استمرّ الأمر... ربّما لحظاتٍ لا غير، لكنّها كانت طويلةً، طويلةً جداً. وكأنّي صحوتُ من نومي لأجد نفسي في مكان وزمان لا أمتّ إليهما بصلة، محاطةً بوجوه ليست لأهل أو أحبّة أو أصدقاء.

ما الذي أتى بي إلى هنا؟ أين النهر؟ أين النخيل؟

---

* ـ كاتبة عراقيّة.

بدأتْ روحي تغوص في تساؤلات لم يوقفْها سوى صوت أحدِ الطلبة وهو يتوجّه إليّ بسؤال. عادت إليّ تلك اللحظات وأنا أجلس إلى رجل أحدِّثه عن أشياء أصبحتْ ذكريات، وأنظاري هاربة إلى سطوح بيوتٍ وإلى شمس تحاول الانسحابَ خلف سلسلة جبليّة.

سمعتُه يتساءل بتردّد وحنان: «لِمَ تبكين؟ أتراني أحزنتُكِ؟»

دون أن أنظر إليه مسحتُ دموعي وأنا أقول: «لا.. ليس بكاءً.»

ـ ودموعُكِ؟

ـ أعذرني! أحيانًا أصبح عاطفيّةً. أحيانًا أَذْرف الدموعَ لمجرّد رؤيتي كلبًا يجلس باستكانة في ظلّ جدار ويَنْظر إلى المارّة بنظرات الكلاب الحزينة التي تعرف. أقصد، أحيانًا أبكي دون سبب.

ـ أرجوكِ انظري إليّ.

كنتُ أشعر بعذابه، لكنّي لم أستطع إيقافَ موجة الحزن التي انتابتني، وشعوري بالحرج وأنا أَذْرف الدموعَ أمام رجلٍ ألتقيه لأوّل مرّة.

جاء النادل لتغيير المنفضة الكريستاليّة المتلئة بأعقاب السجائر. مازحتُه: «أرجوكَ أَحْضِرْ لنا منفضةً صغيرةَ الحجم كي أستطيع سرقَتَها!»

حدثتُه عن الإرباك الذي طالما كنتُ أسبِّبه للنُّدَل حين أسأل بصوت عالٍ الصديقاتِ والأصدقاءَ في الكافتيريات والمطاعم التي ندخلها أولَ مرّة عن الأشياء التي يُمْكن سرقتُها من المكان. وحدّثته عن استعراضي طرَق إخفاء المسروقات، وعن وجوه النُّدَل وهم يراقبونني، وعن دهشتهم وأنا أترك المكان مودِّعةً: «في المرّة القادمة سأسرق هذا الفنجان» أو «احتفِظوا لي بهذه الزهريّة لأنّي سأسرقها في الزيارة المقبلة.»

صمتْنا لفترة. ثم، كَمَنْ يراني لأوّل مرّة، نظر إليّ وهو يقول: «يثير استغرابي استغراقُكِ في الحزن واستغراقُكِ في المزاح!»

أجبتُ بسرعة: «الحزن خاصّ... والفرح عامّ.»

◆ ◆ ◆

في اللقاء الثاني كان المكان مكتظاً بالروّاد. لم نجد سوى تلك الطاولة المشْرفة على مشهد المقبرة. سحب لي كرسيّاً يُطلّ على باحة المطعم. تجاهلتُ حركتَه وجلستُ قبالة الواجهة الزجاجيّة وأنا أقول: «لا داعي لحمايتي من منظر المقبرة. إنّها تسكن في داخلنا.»

ـ أتدرين؟ لقد دخلتُ هذه المقبرة أكثرَ من مرّة وتجوّلتُ فيها. الكلمات المنقوشة على الشواهد تثيرني. قُمتُ بتسجيل بعضها.

ـ لطالما رغبتُ في دخول المقبرة لكنّي لم أجرؤ. تخيَّلْ ما يُمْكن أن يسبِّبه منظرُ امرأة غريبة تَدْخل وحدها.

ـ ما الذي يغريكِ بدخول المقابر؟

ـ السكون. إنّها المكان الوحيد الذي لا يُستهلَكُ فيه الكلامُ أو الهواء. لا شيء سوى الصمت. حتى الريح تتردّد خجولةً في المكان وكأنّها تسير على أطراف أصابعها. كما أنّ فكرة دخولِكَ مقبرةً لا تزور فيها شخصًا محدّدًا ـ أقصد شخصًا يخصّك، متحرِّرًا من الأفكار التي قد يسبِّبها وجودُه ـ ذكراك إيّاه تساعدكَ على الاستمتاع بالسكينة والصمت.

ـ هل سبق أن دخلتِ مقبرةً لا قبر فيها يخصُّكِ؟

ـ أتتذكّر مقبرةَ الأرمن، تلك المقبرةَ الكبيرة الواقعة في نهاية شارع النضال؟

ـ نعم.

ـ كنتُ أمرّ بها عادةً، وأنا في السيّارة. وكان منظرها من الخارج يَلْفت انتباهي بذلك الانسجام والقِدَم في الطراز. قبل خمسة أعوام، أثناء اضطراري إلى مراجعة وزارة التعليم العالي والبحث العلميّ، اكتشفتُ بابًا جانبيّاً للمقبرة. صادف ذلكَ أيّامَ الصيف الحارّة جدّاً. كنتُ كلّما عدتُ من الوزارة يباغتني منظرُ الباب الموارِبِ ذاك. كنتُ أتوقّف عنده دقائقَ طويلةً. أتدري ما الذي كان يأسرني؟

ـ ماذا؟

ـ الممرّ المعتّق بالظلّ، والهدوء محاطًا بقبور صَقّلَ أحجارَها الزمنُ والعزلةُ والعتمة. كنتُ أشعر بهذا وأنا وسط لهيب الشمس وضجيج المنطقة المزدحمة بالسيّارات والمارّةِ والهواءِ المشبَعِ بأصواتِ الباعة والغبارِ ومخلّفاتِ عوادم السيارات. نعم الظلّ المعتّق والهدوء.

ـ هل دخلتِ؟

ـ لا!

ـ لماذا؟

ـ أتصدّقْ إنْ أخبرتُكَ أنّي كنتُ أخشى نفسي؟! كان مروري عبر ذلك الباب الموارب يعني عدمَ خروجي من المكان. كان نداءُ العتمة والصمت يجد صدًى في روحي، وكنتُ أفضّل أن يظلّ ذلك النداء رغبةً تَسْكنني حتى اللّحظة التي أستطيع فيها اتّخاذَ القرار دون خوف أو تردّد.

◆ ◆ ◆

بعد اللقاء الثاني لم نتحدّث عن المقابر والموتى، والشواهد والعتمة، ولا عن طقوس الموت في كربلاء والنجف. كنّا نقضي الوقت متحدثَيْن عن المدن والكتب والطلبة والأصدقاء وأنواع النخيل، عن دجلة والفرات ومذاق ماءِ كلٍّ منهما، عن بيوت صنعاء وأهلها، عن اللهجات. وذات يوم، وأثناء عودتنا من بريد التحرير، اكتشفْنا أنّ الباصات التي تتوجّه إلى حيث نَسْكن قد تمّ نقلُها إلى مكان آخر لإصلاحات في الطرق. وبدلاً من البحث عن مكانها قرّرنا العودةَ سيرًا على الأقدام.

كانت تلك المرّةَ الأولى التي أسير فيها في تلك الشوارع.

كان الحديثُ عن موقفٍ مضحكٍ تعرَّضَ له وهو يلتقي بامرأة لا يَعرف ملامحَها جيّدًا، والمفارقاتِ التي أحاطت بذلك الموقف، قد شغلني عن تفحّص الطريق. وكنتُ مستغرقةً في الضحك عندما وقعتْ أنظاري على بوّابة المقبرة. ودون وعي صرختُ بدهشة: «أنظرْ. المقبرة!»

جاء صوتي الممتلئ دهشةً عاليًا وكأنّه استمرار لاستغراقي في الضحك.

نظر إليّ بصمتٍ للحظة وهو يقول: «مَنْ يسمعْكِ تصرخين مندهشةً يظنّ أنّك تقولين: أنظرْ، إنّه البحر، أو يا لَجمال تلك الحديقة!»

ـ الجمال في كلّ مكان، حتى في المقابر.

دخلنا المقبرة. كان منهمكًا في قراءة الشواهد، وكنتُ منشغلةً بتأمّل النباتات والأصص التي غطّت بعضَ القبور.

في ذلك اليوم مارسنا لعبةَ التوقّعات. كان كلُّ واحد منّا يخمِّن هويّةَ ساكن القبر: الجنس، العمر، المنزلة. حاول مشاكستي وأنا أقول له بثقة: «كلُّ قبر مغطّى بالزهور، والنباتاتُ فيه طريّةٌ متألّقة، هو قبرُ رجلٍ أو طفلٍ أو طفلة.»

ـ لماذا؟

ـ وحدهنّ النساءُ يهتممن بمن يُحْبِبن حتى بعد موتهم. القبر المعتنى به يكون إمّا لزوج أو لابن أو ابنة.

أَصَرَّ على مشاكستي: «هذا الرأي ضدّ الرجال.»

ـ ليس الأمر كذلك، ولكنّ الرجل أكثر انسجامًا مع الحياة من المرأة. أوْ لنقلْ إنّه أكثرُ واقعيّةً.

طوال الوقت كان يحاول إثباتَ خطإي. لكنّا كلّما توقّفنا عند قبرٍ مزدهرٍ بالنباتات والعناية وجدْنا الشاهدةَ تُفْصح عن هويّة رجلٍ أو طفلٍ أو طفلة.

وعندما كاد أن يسلِّم بهذا الرأي شاهدْنا من بعيدٍ رجلاً يَحْمل دلوَ ماءٍ ويسقي نباتاتٍ على قبر.

انفرجتْ أساريرُه وهو يقول بانتصار: «أترينْ؟ أنتِ على خطإٍ أخيرًا!»

ابتسمتُ وأنا أقول له: «لا تستعجلْ. سنرى عندما يغادر الرجل المكان.»

توقّفنا عند شاهدة كبيرة فخمة لأحدِ ملوكِ اليمن.

تساءلنا: «ما الذي أتى به إلى هنا؟»

كان الرجل قد غادر بدلوِه الفارغِ المكانَ. وأسرعنا إلى القبر. قرأنا الشاهدةَ: كانت لطفل في الخامسة من العمر.

نظرتُ إليه مبتسمةً: «هل رأيتَ؟ لقد جاء هذا الرجل إلى قبر ابنه، ربّما تحت إلحاح الزوجة وتهديدِها له. وقد يكون شاغلُ القبر أخًا لهذا الرجل، وتحت وطأة دموع الأم أتى لسقي النباتات. أراهِنُكَ أنّكَ حتى لو سكنتَ في هذه المقبرة فلن ترى رجلاً يأتي للاهتمام بقبر أمّه أو زوجته.»

سأل بحزن: «أتراكِ ستأتين لزيارتي والاهتمام بزهور قبري؟»

ـ السؤال ينبغي أن يكون كالتالي: «أتراكَ **أنتَ** ستفعل هذا؟ أشمّ رائحةَ الموت قريبةً منّي. أقصد، لديّ هذا الإحساس دائمًا. هذا لا يخيفني أبدًا. لا يحزنني. الآن أقول لك: أتمنّى أن لا تزور قبري... أن يكون قبري مهجورًا... منسيّاً... وبشاهدةٍ طينيّةٍ حُفِرَ عليها اسمي واسمُ والدي فقط ، دون تفاصيل أخرى كالعمر والعائلة وتاريخ الميلاد والموت... دون أشعار أو أيّة كتابات أخرى. أريده قبرًا عاريًا تمامًا، بلا زخرف أو موادّ بناء... قبرًا طينيّاً تشعّ عليه أشعةُ الشمس لا غَير. وبهذا أعود إلى التراب مثلما أتيتُ... تمامًا كالقبر الذي أمامنا.

ضغط على يدي بقوّة، وبصوت مختنق قال: «أرجوكِ لا تتحدّثي بهذه الطريقة. دعينا نخرجْ من هذا المكان. لكنْ عليكِ أن تعديني بشيء.»

ـ ماذا؟

ـ إذا مُتُّ فلا تحملي جثماني إلى العراق. أريد أن أُدفنَ هنا احتجاجًا على غربتي التي لم اخترْها.

ـ لكَ هذا. لكنّ عليكَ أن تَعِدَني أنتَ الآخر بأن تَحْمل جثماني إلى كربلاء، وأن يكون قبري مثلَ هذا القبر الذي أمامنا.

ـ أَعِدُكِ.

ـ إذن فلنتأمّلْ هذا القبر لكي تفي بوعدك على أكمل وجه.

اتّجهنا إلى القبر المغرَقِ بعزلته وبساطته. كان صغيرًا وواطئًا جدّاً، غطّته الأتربة المنقوعة بالأمطار فنبتتْ عليه بعضُ النباتات الصغيرة التي حملتْ بذورَها الريحُ من النباتات المحيطة بالمكان. قلتُ له: «دعنا نقرأْ شاهدةَ القبرة.. لا بدّ أنّه لامرأة.»

انحنيْنا لقراءة الشاهدة. فجأةً ساد الهدوءُ المكانَ. حتى هَمْسُ الريح توارى. كان الهواء مُشْبَعًا بالسكينة. كنتُ أسمع دقّات قلبيْنا ونحن نقرأ الاسم.

كانت الشاهدةُ من دون تفاصيلِ موتٍ أو ميلادٍ أو أشعار. لا شيء سوى عنوان من كلمتيْن: إرادة زيدان.

بغداد